مع الجدرى

انتشر الجدرى فى العصور الخالية انتشاراً كبيراً فلم تخل منه قرية أو منزل ويقال إن آثاره كانت ترى على وجه شخص من كل خمسة أشخاص وهـذه بلا شك نسبة كبيرة جداً للاصابة قبل أن يوجد مثلها فى أى مرض وبائى آخر . ولقد بلغ من انتشاره فى تلك الأوقات أن كان الناس اذا ما أرادوا أن يصفوا أحد الأشخاص اتخذوا من آثار الجدرى صفات مميزة يذكرونها فى وصفهم ، ويقال إن بعض نبلاء الانجليز كانوا إذا ما أرادوا الاعلان عن خادم أو خادمة اشـترطوا وجود آثار الجدرى على الوجه لعلمهم أن من أصيب بهذا المرض مرة اكتسب مناعة قوية ضده .

ومن صفات هذا المرض أنه مرض ديمقراطى يصيب كل طبقة وكل جنس وسن على السواء . يصيب الأطفال والشبان والشيب ، والملوك والصعاليك ، بعكس التيفوس مثلا الذى يقضى على الشيوخ دون الأطفال ويصيب الفقراء وقلما يصيب الأغنياء .

وممن أصيب بالجـــدرى من عظماء الرجال أبو العلاء

المعرى وڤولتير ولويس الخامس عشر ووشنجطن وبسمارك وكروموبل وغيرهم ممن يضيق المجال عن ذكرهم .

ومن دواعى فخر العرب أن أول من وصف هذا المرض وصفا علميا صحيحا كان طبيبا عربيا يدعى أبابكر محمد بن زكريا الرازى فقد وصفه فى كتاب كتب باللغة العربية ثم ترجم الى الألمانية والانجليزية واللاتينية وغيرها من اللغات الحية والميتة . وقد كان الرازي أيضاً أول من فرق بين هذا المرض وغيره من الأمراض المعـــدية المصحوبة بطفح جلدى وخصوصاً الحصبة .

لم يكن هذا هو الكتاب الوحيد الذى كتبه الرازى بل لقدوضع عدة كتب أخرى لافى الطب وحده بل فى الكيميا والطبيعة والرياضة والفلسفة أيضاً مما يدل على أنه كان على درجة كبيرة من العلم والثقافة ،وقد كان كتابه فى الكيمياشؤماً عليه إذ صدّره بكلمة اهداء الى أمير من أمراء بغداد اشتهر بالعطف على العلماء والأدباء ، وسُر الأمير من هـذا الاهداء سروراً بالغا فاستدعى الرازى وكلفه أن يقوم أمامه بتجربة من التجارب التى وردت فى هـذا الكتاب فحدث من سوء حظه

أن فشلت التجربة كما يحدث كثيراً فى مثل هذه الأحوال ، فغضب الأمير وثار عليه وضربه بسوطه ضربة أصابت عينيه وأفقدته البصر ، فأشار عليه بعض أصدقائه بأجراء عملية جراحية قد تعيد اليه البصر فرفض قائلا إنه قد رأى من الدنيا ما يكفى وليس بحاجة إلى المزيد ، وتوفى بعد بضع سنين فقيراً معدماً إذ كان قد وزع كل ما يملكه على المرضى والفقراء والمعوزين .

ويظهر أن الجدرى بدأ أول ما بدأ فى أفريقيا وعلى الأرجح فى بلاد الحبشة التى انتشر فيها لعدة قرون انتشاراً مريعاً ويقال إن الزائر لهذه البلاد كان ، قلما يرى شخصا خلا وجهه من آثار الجدرى ، وقد استشهد بعض المستشرقين على علاقة الجدرى بالحبشة بالآية القرآنية الشريفة « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم فى تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول » فهم يفسرون الآية بأن الجدرى فى لغة الفرس يدعى أبابيل وأن أصحاب الفيل هم الأحباش الذين انتشر الجدرى بينهم وحصدهم حصداً . وقد حدث أن انتشر هذا المرض

أيضا بين العرب بعد الموقعة التى اشتبكوا فيها مع الأحباش والتى أشير اليها فى الآية الشريفة . ولكن لا بد لنا من أن نذكر أن كثيراً من علمائنا يفسرون هذه الآية غير هذا التفسير .

ويظهر أن الجدرى كان كذلك كثير الانتشار فى بلاد الهند . وسواء أكان وطنه الأصلى الحبشة أم الهند فهو قد عم العالم كله بعد ذلك . وكان من البلاد التى لم يصلها الا متأخراً سيبيريا التى وصلها فى القرن السابع عشر واستراليا وهوايا التى لم يصلها الا فى أواسط القرن التاسع عشر . وأول وباء ظهر فى النصف الغربى من العالم كان فى جزر الهند الغربية حيث فتك بالاهالى فتكا ذريعا ويقال إنه أباد قبائل من الهنود بأكملها ، شأن كل وباء جديد على أمة لم تعرفه من قبل . وفى عام ١٥٢٠ نقله الاسبانيون الى المكسيك . وظهرت أول حالة فى أمريكا الشمالية فى بوستون عام ١٦٤٩ ، ولقد كان هذا المرض عاملا هاما جداً فى غزو أمريكا إذ أباد من هنود أمريكا أضعاف أضعاف من أبادهم من الغزاة الأوروبيين الذين اكتسبوا المناعة ضده من كثرة تعرضهم له وقد اعتبره قساوسة الغزاة مكرمة

حباهم بها الله ليساعدهم على نجاح مهمتهم .

انتشرت فى الصين والهند منذ القدم عادة تحصين الاهالى ضـــد الجدرى باستنشاق مسحوق محضر من قشور جدرية كشطت من جلد المرضى ثم جففت وسحقت .

واتُبعت بعد ذلك طريقة أخرى صارت أكثر انتشاراً إذ عمت الشرق كله حتى وصلت الى تركيا ومن هناك نقلتها الليدى مونتاجيو قرينة السفير البريطانى فى تركيا الى انجلترا ومنها وصلت الى ممالك أوروبية كثيرة . وهذه الطريقة — كما كانت متبعة فى تركيا — تنحصر فى أن يجتمع الأهالى الذين يريدون التطعيم فى وقت معين وتأتى امرأة عجوز ومعها قشرة بندق ملأتها بالمادة الجدرية المأخوذة من حالات جدرى خفيفة وتسأل كل فرد منهم عن الوريد الذى يختاره لتضع اللقاح عليه بعد أن تخدشه خدشاً بسيطاً بإبرة صغيرة — بحيث لا تزيد كمية اللقاح عما تحمله رأس هـــذه الابرة . شاهدت الليدى مونتاجيو هذه الطريقة تجرى أمامها ثم اقتنعت بأنها تكسب الناس مناعة قوية . ولو أنها فى الواقع كانت لا تخلو من الخطر الا أنه كان خطرا ضئيلا بالنسبة لفوائدها الجمة .

اقتنعت الليدى مونتاجيو بمزايا التطعيم فاستدعت إحدى هؤلاء النسوة — وكانت امرأة يونانية — وكلفتها بأن تطعم نجلها بحضور طبيبها الخاص الدكتور شارلس متلند ونجح التطعيم ولم يصب الطفل بسوء ، فلما عادت هذه السيدة إلى انجلترا حاولت إدخال تلك الطريقة فيها وأقنعت ولى العهد بتطعيم أولاده . الا أن الملك أبى أن يُطعَّم أحد من أفراد الأسرة المالكة حتى يجرَّب اللقاح أولا فى ستة مساجين محكوم عليهم بالاعدام على أن يفرج عنهم بعدذلك ، وقد نُفِّذ هذا الأمر فجرِّب اللقاح فى المساجين ثم أفرج عنهم وطُعِّم أبناء ولى العهد . وقد كان هذا وحده كافيا لأن تنتشر عادة التطعيم بين الأهالى . الا أنها رغم تعضيد متلند وغيره من ذوى النفوذ لم تسلم من الناقدين خصوصاً من رجال الدين . فقد قام أحد رجال الكنيسة وهاجم الليدى مونتاجيو وطريقتها ومن اتبعها هجوما عنيفا وقال إن مثل هذا الاجراء كفر وإلحاد وإن فيه مخالفة للوائح الدينية ، ولم ينقذ الموقف سوى انتشار التطعيم بين أفراد الأسرة المالكة ، خصوصاً فى بلاد كبلاد الانجليز التى جُبل أهلها على اجلال

ملوكهم وأمرائهم الى أقصى حد .

وحدث فى عام ١٧٢١ أن انتشر الجدرى فى بوستون فى أمريكا وأصاب ممن عرضوا للعدوى كل من لم تسبق اصابته به ومات ممن أصيبوا فرد من كل ستة أفراد . وكان يمارس الطب فى هذه البلدة رجل يدعى « كوتون ماثر » (Cotton Mather) سمع عن التطعيم فى انجلترا وما أتى به من الفوائد فأشاد به وبيّن للناس فوائده وطعم نجله أمامهم كما تطوع بتطعيم طفل آخر صديقٍ لنجله لولا أن رفض والده . وأراد الله أن يصاب هذا الطفل بالجدرى وينوت منه بينما لم يصب نجله بسوء .

لم يكن هذا كافيا لاقناع الأهالى . بل بالعكس ثاروا عليه وكادوا يقتلونه اذ رماه أحدهم بقنبلة شاءت الأقدار أن لا تنفجر . الا أنه انتصر فى آخر الأمر وآمن الناس بفائدة التطعيم وأصبحوا هم الذين يسعون اليه واتضح لهم بعد انتهاء الوباء أن نسبة الوفيات فيمن لم يطعموا بلغت أكثر من عشرة فى المائة بينما هى فيمن طعموا لم تزد على واحد فى المائة .

أما فى فرنسا فقد قوبل هذا اللقاح بفتور شديد وأطلق

عليه الفرنسيون اسم اللقاح الانجليزى ، وكان هذا وحده كافيا لنبذه لما استحكم وقتئذ بين الدولتين من خلاف ، وقد حاول ڤولتير شاعر فرنسا الشهير الذى أصيب بالمرض وشفى منه وبقى أثره على وجهه والذى زار انجلترا ولمس بنفسه فوائد التطعيم حاول اقناع الفرنسيين بفائدته وأشاد به كثيرا ، الا أنه رغم نفوذه بين مواطنيه ورغم احترامهم لآرائه لم يجد أذنا صاغية فلم يفلح فى اقناعهم بفوائده ، أو اقنعهم بها وفشل فى أن يجعلهم يميزون بينه وبين الخصومة السياسية مما دعاه الى أن يقول كلمته المأثورة « إن الانجليز دائما يُحَكِّمون العقل أما نحن فنحكِّم العاطفة » .

وفى ٢٧ أبريل عام ١٧٧٤ لزم لويس الخامس عشر الفراش يشكو صداعا بسيطا وارتفعت حرارته قليلا وجلست بجواره عشيقته مدام دي بارى التى أحبها حبا جما ، وكانت اذ ذاك فى الخامسة والثلاثين من عمرها بينما كان هو فى الرابعة والستين وكان يرتاح دائما لمجالستها لما اتصفت به من اللهو والمرح ، بعكس عشيقته السابقة مدام پومپادور التى اتصفت بالفطنة والذكاء والتى كان يقول عنها دائما « إن وجودها بجوارى

يضطرنى للتفكير فى وقت أفضل فيه اللهو والتسلية » .

جلست بجواره مدام دى بارى وهى تعتقـــد أنه مصاب بتوعك بسيط لا يلبث أن يزول، وكانت النية متجهة إلى الخروج للصيد فأجّل ذلك إلى اليوم التالى ، إلا أن الصداع اشتد فى ذلك اليوم وزادت الحمى ولم يتمكن الأطباء من تشخيص المرض أو شخصوه خطأً ، واستمر الحال كذلك بضعة أيام ثم نُقِل الملك إلى قصر ڤرساى ووُضع فى غرفة أُحْكِم أظلامها مما جعل تشخيص المرض أكثر صعوبة على أطبائه رغم أنهم كانوا يوالون زيارته كل يوم بل كل ساعة . وأخيرا فكر أحدهم فى إرسال شعاع بسيط من النور من إحدى النوافذ . وفى تلك اللحظة فقط تمكنوا من رؤية مريضهم جيداً وهالهم أن رأوا طفح الجدرى يغطى وجهه . بحيث لم يبق شك فى نوع المرض ، وانحصر كل همهم إذ ذاك فى اكتشاف منبع العدوى ، فمنهم من قال إن الملك كان يغازل فتاة فى الثالثة عشر من عمرها وإن هذه الفتاة كانت اذ ذاك فى دور الحضانة لمرض الجدرى الذى ظهرت أعراضه عليها بعد بضعة أيام من المقابلة الملكية ، ومنهم من قال إنه أصيب به إذ مرت به وهو فى طريقه

للصيد جنازة رجل مات من الجدرى، ولاشك أن القصة الأولى أقرب الى العقل والتصـــديق . ساء حال المريض العظيم واشتدت وطأة المرض عليه رغم العناية التى شمله بها أطباؤه وأخيرا لفظ النفس الأخير فى اليوم السابع من شهر مايو، أى أن المرض استغرق معه عشرة أيام .

وكانت التقاليد تقضى عندما يموت أى فرد من أفراد الأسرة المالكة أن تجرى على جثته الصفـــة التشريحية بحضور مندوب من كلية الطب، وقد بادر هذا المندوب بالذهاب الى القصر بعد علمـه بالوفاة الا أن طبيب الملك خالف التقاليد وعارض فى اجراء الصفة التشريحية مع شديد احترامه لكلية الطب ومندوبها ومع اعترافه بكل حقوقها، فتمسك المندوب بحقوقه وعضده فى ذلك رئيس التشريفات الذى تشبث باتباع التقاليد، وكانت هذه التقاليد تحتم أن يحضر هو أيضا التشريح فأجابه طبيب الملك بأنه سيرضخ لأوامره الا أنه يجب أن يعلم أنه لن تمضى بضعة أيام حتى يكون هو ومن أجرى الصفة التشريحية وكل من حضرها فى عداد الموتى وحينئذ فقط اتضح لرئيس التشريفات أن هذا التقليد

تقليد سخيف يجب أن يمحى من بلاط فرنسا .

وبعد وفاة لويس الخامس عشر دُعى طبيب سويسرى يدعى تيودور ترونشن Theodore Tronchen لتطعيم أفراد الأسرة المالكة ضد الجدرى وانتشرت الطريقة « الانجليزية » فى فرنسا عدو انجلترا اللدود وأقلع الأطباء الفرنسيون عن تسميتها بالطريقة الانجليزية لكى لا يُنفِّروا الناس منها .

هذا ولم يعرف سبب الجدرى الا منذ عهد قريب إذ اتضح أنه من تلك الجراثيم الضئيلة التى لصغر حجمها تستطيع المرور من مسام مرشح دقيق ، وقد نسبه قبل ذلك بقليل عالم ايطالى يدعى « جوارنيرى » الى حيوانات صغيرة ذات خلية واحدة رآها فى خلايا الجلد البشرية ووصف حياتها وتطوراتها . واتضح فيما بعد أن هذه الحيوانات ما هى الا مستعمرات صغيرة من الجراثيم الضئيلة التى أشرنا اليها .

ومما يجدر ذكره أن لمرض الجدرى فى الانسان أمثاله فى الحيوان فالبقر والخيل والغنم وغيرها تصاب بأنواع خاصة بها من الجدرى لا تختلف كثيرا عن جدرى الانسان ، ولعل الجراثيم المسببة لهذه الأمراض نشأت كلها من أصل واحد ثم اتخذ

كل منها طابعه الخاص بعد أن مر فى الانسان أو الحيوان لعدة أجيال .

وكان الناس منذ عهد بعيد يعتقدون أن هناك علاقة بين جدرى الانسان وجدري البقر ، بل ولاحظ بعضهم أن من أصيب بجدرى البقر — وقد يصاب به الانسان بشكل خفيف ان عرض لعدواه — اكتسب المناعة ضد جدرى الانسان ، ويقال إنه كانت للملك شارلس الثانى خليلة تدعى دوقة كليفلاند على جانب كبير من الجمال جلست ذات يوم بين جمع من الناس تزهو بجمالها فذكر أحدهم أنه لا داعى لهذا الزهو فقد تصاب بالجدرى فيشوه وجهها وتفقد جمالها ، فأجابت بأنها لن تصاب بالجدرى ولن تفقد جمالها لأنها سبق أن أصيبت بجدرى البقر الذى سيحميها من جدرى الانسان ، وقد تحققت نبوءتها الأولى فلم تصب بالجدرى وخابت الثانية اذ تسربت الشيخوخة اليها وتجعد وجهها وضمر جلدها وفقدت جمالها وحظوتها عند الملك .

حدث بعد ذلك بما يقرب من مائة عام أن كان طالب طب يدعى « جنر » (Jenner) لم يبلغ التاسعة عشر من عمره يشتغل

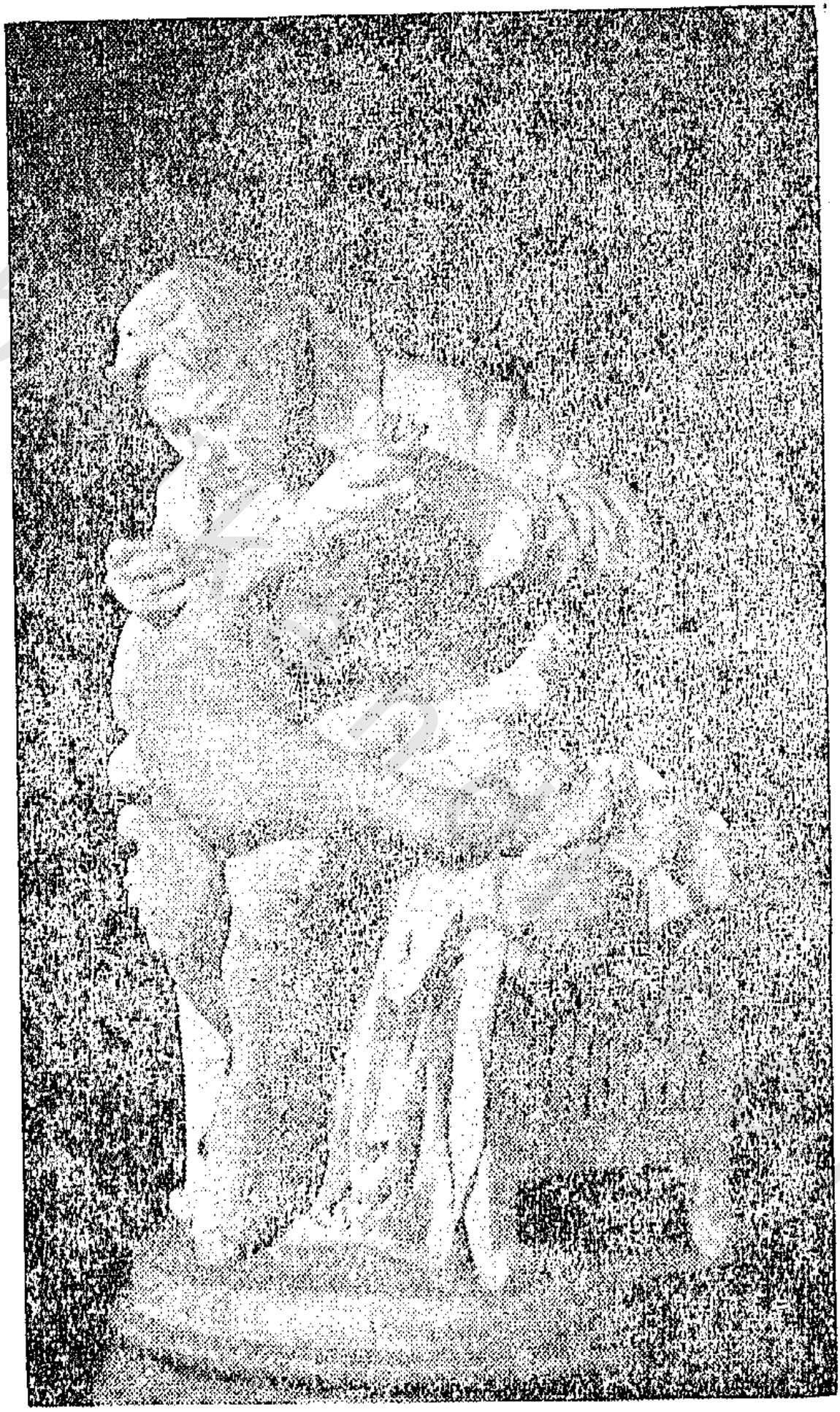

تمثال لجنر يطعم طفلا ضد الجدري

فى عيادة أحد الأطباء — وكانت هـذه هى العادة المتبعة فى تعليم الطب — فرأى فتاة ريفية مصابة بطفح جلدى وذكر أمامها أنه يشتبه فى اصابتها بالجدرى ، فقالت الفتاة على الفور ان ذلك مستحيل لأنها سبق ان أصيبت بجدرى البقر ، فطُبعت هذه العبارة فى ذهنه ولم يمحها مر السنين . وقد قضى بعد ذلك بضع سنوات فى لندن يتمرن فى مستشفياتها وبضع سنوات أخرى تتلمذ فيها على چون هنتر (John Hunter) عميد جراحى انجلترا ومن أعظم من أنجبتهم مهنة الطب فى العالم . وتوطدت بين الاستاذ وتلميذه صداقة متينة ، فأسر له الأخير بما يخالج نفسه فيما يختص بالعلاقة بين جدرى الانسان وجدري البقر وما تركته ملاحظة الفتاة الريفية من الأثر فى ذهنه ، وقال إنه يظن أن هذه الفتاة قد أصابت كبد الحقيقة وأن جدرى البقر يكسب المناعة ضد جدرى الانسان ، فأجابه هنتر بتلك العبارة المأثورة « لا تظن بل جرب وكن صبوراً وتوخ الدقة »

(Don't think و try و be patient, be accurate)

وبعد ان انهى چنر من دراسته وتمرينه عاد إلى بلدته ومارس الطب فيها وقد علقت بذهنه نصيحة أستاذه الذى

مات بعـــد ذلك بقليل اثر نوبة قلبية أصابته فى مستشفى سان چورج بعد مناقشة عنيفة مع بعض زملائه وكان دائما يقول إن حياته فى يد أى وغد يثير غضبه .

لم يلبث چنر طويلا حتى سنحت الفرصة التى كان ينتظرها اذ انتشر جدرى البقر فى بلدته ووصلت العدوى الى كثير من المزارعين فأخذ قليلا من الصديد من كف فتاة ريفية كانت تشتغل بحلب البقر مما سهل انتقال المرض اليها . وطعم بهذا الصديد طفلا يدعى « چيمس فيپس » JamesPhipps بأن وضع المادة على خدش بسيط فى ذراعه ، وبذلك كان هذا الطفل أول من طعم بهذه الطريقة فى التاريخ . وبعد بضعة أيام ظهر على ذراع الطفل موضع التطعيم دمل صغير ما لبث أن امتلأ بسائل أصفر اللون تحول بعد ذلك الى صديد ، ثم التأم ولم يبق على الذراع سوى أثر بسيط . لقح هذا الطفل بعد ذلك بجدرى الانسان فلم يظهر عليه عرض من أعراض المرض . ولا تسل عن سرور چنر بهذه النتيجة التى ود لو أن أستاذه هنتر لازال على قيد الحياة ليبلغها إياه . ولكى لا يترك مجالا للشك أعاد التجربة مراراً فحصل على النتيجة نفسها . فلما وثق من نفسه

واطمأن الى عمله الذى توخى فيـــه الدقة والصبر والذى جعل أساسه التجربة كما أوصاه أستاذه جلس الى مكتبه ودوّن مشاهداته فى رسالة سماها « اللقاح الجديد ضد الجدرى » ثم أرسلها الى الجمعية الملكية لنشرها فكان نصيبها الرفض وأعيدت اليه مع تحيات الناشر . فقام بطبعها على نفقته وما أن نُشرت حتى قوبلت بعاصفة شديدة من النقد ، شأنها فى ذلك شأن كل عمل عظيم فى بدء ظهوره . هاجمه الكثيرون من الأطباء ورجال الدين واتهموه بالدجل والشعوذة تارة ، وبالكفر والالحاد تارة أخرى ، وأوهموا البسطاء أنه انما قصد بعمله هذا تحويل أولادهم الى بقر . فاصبح موضع الهزء والسخرية بين أهل بلدته وعشيرته ونبذوه وقاطعوه وكانوا اذا ما رأوه فى الطريق تجنبوه بل وحصبه السفهاء منهم ، ولم تهدأ هـــذه العاصفة الا بعد فترة طويلة كانت قد وصلت أثناءها أخبار اللقاح الجديد الى بلاد أخرى كالمانيا وفرنسا وأمريكا حيث جُرب هناك ونال نجاحاً كبيراً وتحمس القوم له تحمساً شديداً حتى فى فرنسا عدو انجلترا اللدود التى كانت وقتئذ فى حرب معها . وقد صدق من قال «لا يكرم نبى فى وطنه» . وقيل ان

جنر كتب يوماً الى نابليون يرجوه الافراج عن صديق له وقع أسير حرب فى أيدى الفرنسيين فلما رأى نابليون اسم جنر قال « جنر ؟ اننا لا نرفض طلبا لجنر » (Jenner ? Je ne puis rien refuser a Jenner) فكان فى ذلك أكرم من مواطنى جنر الانجليز الذين سجنوا صديقاً له فرنسياً كان من المتحمسين لطريقته العاملين على نشرها ، فتوسط فى الافراج عنه ورُفض طلبه رفضاً باتاً . ولكن الانجليز آخر الأمر — كعادتهم — أدركوا قيمة عمله العظيم وقرر له البرلمان جائزة مالية كبيرة اعترافاً بفضله .

أخذ اللقاح ينتشر بسرعة في جميع أنحاء العالم المتمدن وكان التطعيم يجرى بالمادة المأخوذة من المطعمين أنفسهم أى من ذراع الشخص المطعم الى ذراع غيره وهكذا . ولم تكن هذه الطريقة لتخلو من الخطر إذ كان من الممكن أن ينتج عنها انتقال أمراض أخرى من شخص الى آخر . ولذلك أُدخل بعض التعديل على اللقاح فأصبح يُحضر بكميات كبيرة بتطعيم عجول منتقاة خالية من الأمراض وأخذ المادة الجدرية منها .

ومن الغريب أن جميع الدول المتمدينة سنت قوانين تجعل

التطعيم اجبارياً الا انجلترا مهد اللقاح الذى يرجع الفضل فى اكتشافه الى أحد أبنائها ، اذ يبيح القانون الانجليزى الاعفاء من التطعيم إن أقسم والد الطفل أنه لا يعتقد فى فائدته .

ولقد كان من نتيجة مراعاة الدقة التامة فى تنفيذ القانون فى بعض البلاد كالمانيا مثلا ان اختفى هذا المرض منها اختفاء تاما ولبثت العنابر المخصصة لعزل مرضاه خالية لعدة سنوات. أما فى انجلترا فقد حدث عام ١٨٩٦ حينما احتفل الانجليز بالعيد المئوى لهذا الاكتشاف العظيم ان كان فيها (وفى بلدة چنر بالذات) عدد كبير من مرضى الجدرى فى الوقت الذى فيه خلت منه فرنسا وسويسرا والمانيا وبلاد أخرى كثيرة خلواً تاماً .

وقد أُدخل التطعيم فى مصر منذ عهد محمد على فكانت هذه البلاد من أوائل البلاد التى أفادت منه وقد سُن فيها قانون للتطعيم على غرار قوانين فرنسا وسويسرا والمانيا يجعل التطعيم اجبارياً ، ومع ذلك فان المرض ما زال منتشراً فيها إذ تنتاب القطر فى فترات مختلفة أوبئة تتفاوت فى شدتها ولو أنها قلما تبلغ الشدة التى بلغتها فى العصور الخالية . وليس الذنب فى انتشار

المرض ذنب اللقاح أو التشريع ، انما هو نتيجة الاهمال فى تنفيذ القانون ، فقد ألقى عبء التطعيم فى الريف — والى وقت قريب فى المدن أيضاً — على عاتق الحلاقين الذين قد لا يرون الطفل مطلقاً ومع ذلك يثبتون فى دفاتر العمد أنه طعم ونجح التطعيم .

obeikandl.com